حقيقة التصوف

سبائك ذهب صاغها قلم صاحب الفضيلة علامة العراق الفقيه المفسِّر الشيخ عبد الكريم المدرس في الحضرة القادرية رحمه الله تعالى .

قام بنشرها وخدمتها في مجلة التصوف الإسلامي في عددها الثاني ٢٠١٠م قاسم الحنفي .

إن التصوف هو تصرف الإنسان المسلم في نفسه بتنبيهها عن الغفلات ، وزجرها عن السيئات ، وتوجيهها إلى الحسنات بالإتباع الكامل بحسب الإمكان لخاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان خُلقه القرآن .

ولا شك أن إتباعه إنما يحصل بالعبادة عملاً بقوله تعالى وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون وفي الإخلاص فيها لقوله تعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وبمعرفته تعالى بقدر المستطاع لقوله تعالى ولا تكن من الغافلين وفي الابتعاد عن أهل الغفلة لقوله تعالى ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا وأتبع هواه وكان أمره فرطاً وفي الخوف المستمر من الرب سبحانه وتعالى استناداً إلى قوله الكريم وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فأن الجنة هي المأوى وفي مزيد الرغبة في التقوى لقوله تعالى واتقوا الله ويعلمكم الله وفي الثبات على الحق في السراء والضراء لقوله تعالى إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون وفي حراسة القلب والمشاعر والحواس عما نهى الله عنه عملاً بقوله تعالى وذروا ظاهر الإثم وباطنه وبالاستقامة على ترك المنهيات وفعل الطاعات عملاً بقوله تعالى فأستقم كما أمرت . والتصوف بهذا المعنى الجلي الجليل هو الإسلام بمعناه السليم الكفيل لسعادة الدارين وليس شيئاً غيره وليس غير ما قلناه من الإسلام قطعاً فالمتصوفون بالدرجة الأولى هم المسلمون والمسلمون بالمعنى الكامل هم المتصوفون .

وإذا أسند الإسلام إلى غيرهم فإنما هو للعمل بظاهر الآداب والأعمال وللإستناد إلى سعة رحمة الله المتعالي أم حسب الذين إجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وللتنور بذلك الإتباع ولو كان شيئاً قليلاً . وكان المتصوفون بذلك الإتباع الشريف الرعيل الأول من الصحابة الذين هم خير أمة أخرجت للناس كالخلفاء الراشدين وأصحاب الصفة المهتدين ومن أصطفى لنفسه الاتصال بحضرة قدسه مؤثراً للبقاء على الفناء .

فانتشرت منهم فائحة عطور الأزهار والأوراد وانشرحت صدورهم بعبارة رب العباد وفاضت منهم الأنوار على قلوب من جاورهم بالإخلاص فصاروا على قدم الرسول مهتدين بهداه ومتذكرين بذكراه ومتنورين بنور قلبه الشريف وسناه وخلق الله في قلوبهم وسائر لطائفهم السنة النبوية المعنوية باقية فيهم إلى يوم لقاه . وسرت تلك

الأنوار منهم إلى غيرهم كما وصل من الصديق الأكبر إلى سلمان ومنه إلى قاسم بن محمد ومنه إلى جعفر الصادق ، ومن سيدنا علي ابن أبي طالب إلى الحسن البصري ومنه إلى الحبيب ومنه إلى داود الطائي ومنه إلى معروف الكرخي ومنه إلى السري ومنه إلى جنيد بن محمد سيد الطائفتين أي علم الأحكام وعلم الإخلاص والتخلي عن الآثام رضي الله تعالى عنهم أجمعين ولم يكن أولئك الأعلام إلا من أهل القرون الثلاثة الذين شهد لهم الرسول بأن قرونهم من خير القرون فهل يتصور أنهم كانوا إلا على الحق السليم والصراط المستقيم.

وقد أثنى الله تعالى على زمرة الأصحاب منـهم عامة وخاصة ، وكفى في الثناء عليهم قوله تعالى محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ولما كانت الأزهار تنتشر منها العطور فكلما جاورهم مُخلِص من المخلصين تنوّر قلبه وأنشرح صدره وبذلك كثرت أتباعهم وتنورت قلوبهم بالأنوار القدسية وابتعدت عن الكدورات النفسية فتطوّرت الأمة المخلصة العابدة الذاكرة فانكشفت لهم الأسرار ، فظهرت منهم خوارق وكرامات صارت شواهد على المعجزات وأنتقل الناس من غياهب الخيالات إلى أنوار اليقينيات ، فكانت أعداد المسلمين الطالبين للمعارف والإخلاص تزداد يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة .

وبما انهم كانوا مجاهدين في سبيل الله وقال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وان الله لمع المحسنين انكشفت لكثير منهم صلاحية نوع الأذكار والطاعات لأهل العصر وأختار بعضهم لأتباعهم الدوام على الخلوة والصيام والقيام بالليل ومنه من أختار تقليل الكلام في ما لا يفيد ، واكثار ذكر الله ، وكلمة التوحيد ومنهم من أختار الذكر القلبي ومراقبة أحواله وحراسته عن الخطرات ، ومنهم من اختار الإكثار من تلاوة القرآن الكريم والصلوات على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ، وكل ذلك داخل في واجبات الدين أو سنة النبي الكريم وعليه أشتهر بين الناس الطريقة الجنيدية أو الطريقة القادرية أو غير الأسماء يعني آدابه الخاصة في تطبيق الكتاب والسنة الإسلامية حيث ان آداب الدين منها واجبات عينية أو كفائية ومنها سنن مؤكدة ومنها سنن غير مؤكدة يعبر عنها بالتطوع وبأنه باب واسع مفتوح للدخول في رحمة الله تعالى ورحمته وسعت كل شيء ، وقال تعالى من تطوع خيراً فأن الله شاكر عليم وليس في شيء منها بدعة ابتدعها الناس خلافاً لما جاء به الرسول أو معارضاً لدينه ومن يعبّر عنها بذلك فهو لم يفهم معنى الدين ولا الفرائض ولا السنن بل هو المبتدع الذي يعبر عن كل خير لم يره بالبدعة ، وحاشا الصحابة والسلف الصالحين عن الإبتداع ولكن الجاهل غافل ..

وقد أكد علماء الدين وأولياء الإسلام ان من خرج عن منهاج الدين قيد شعرة فلا شعور له وان كان عنده ألف شعار فأنه لا خير في شعار بلا شعور ولا في مصباح بلا نور حتى . قال سيدنا قطب العارفين الشيخ عبد القادر

الكيلاني نور الله روحه : من رأيتموه يمشي على الماء أو يطير في الهواء ووجدتم عنده ما يخالف الشرع الشريف فأعلموا أنه دجال كذاب أخطأ طريق الحق والصواب . أو كما قال .

وليس التصوف في الإسلام عبارة عن الرياضيات الهندوسية ولا عن الشعوذة وحيلة المحتالين ولا عن فن إبتدعوه وأفتتن به الناس كما زعم الجهلة الأجانب لأن تصوف الإسلام هو التخلق بأخلاق المصطفى والإقتباس من أنوار صدره الشريف وقلبه اللطيف وقد من الله تعالى عليه بشرح الصدر فقال له ألم نشرح لك صدرك وكل أتباعه وأمته من المختصين بذلك الشرح وذلك التنوير . ولا حق للأجانب في التدخل في معنى تصوف الإسلام فأن الدين لله تعالى والحق عنده وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وغفار المذنبين وستار عيوب التائبين .

ومما يجب الإنتباه لأمرين مهمين في هذا الموضوع أي موضوع التصوف في الإسلام .

الأول : ان أولئك المتصوفين المتصرفين في أنفسهم بصيانتها عن الفساد لم يتركوا الكسب الحلال حتى يكونوا كَلاًّ على الناس بل كانوا مكتسبين من الحلال وعائشين على ما اكتسبوه من المال . ولم يكونوا رهابنةً يتركون الزواج والإبتهاج الثابت بالدين من الحلال فأنه قد كان لكثير من أولئك الصالحين أزواج مثنى وثلاث ورباع ، وكذلك أتباعهم في سائر الأقاليم والأصقاع امتثالا لقوله : « تناكحوا تناسلوا فأني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط » ، وأقوى شاهد على ما قلت كتبُ التأريخ والطبقات .

الأمر الثاني : إنهم لم يكونوا مبتعدين عن خدمة الإسلام والجهاد في الدين فأن أصحاب الصُفّة وهم الرعيل الأول كانوا حاضرين في الجهاد والدفاع عن الإسلام وساعين في نشره في صفحات الأقاليم وكذلك أتباع الحسن وجنيد ومن بعدهم وكذلك أتباع سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني وأمام العيون الحروب الصليبية وحضور إبنه السيد عبد العزيز بجيشه الجرار وفتحهم لبعض الديار المقدسة ، وأمام العيون أبو الحسن الشاذلي وسفره لحرب المغول وكثير من الجيوش الإسلامية تكثرت برجال الروح والتصوف الإسلامي وقد نصرهم الله تعالى في مواطن كثيرة وأمام التأريخ الشيخ شمس الدين ومناصرته للسلطان محمد الفاتح حتى فتح الله عليه الإستانة وغير ذلك مما يطول بيانه .

وهناك مهمة أخرى يجب التنبه عليها : وهي ان اولئك الأولياء كانوا دائماً كالجيش في الثغور لإرشاد المسلمين وشرح الصدور وترغيبهم في إلتزام الطاعات وإجتناب الفتن والغوغاء ولم تفسد الدنيا إلا بفقدانهم وفقدان الناصرين لجيوش المسلمين علاوة على ما كان لهم من خدمة العلم والمدارس الدينية العالية الصافية زائداً على إرشادهم للمسلمين وما كان عندهم من إطعام الطعام وإدارة الضعفاء من المساكين والأيتام والإصلاح بين الأنام . فالحق

والحقيقة ان أولئك المتصوفين وجمهرة العلماء العاملين العارفين كانوا الجناح الأيمن للدول الإسلامية بمر الزمان فالتصوف هو الإسلام والإسلام هو التصوف ومن عداهم تبع لهم كمؤخرة جيش الإسلام ، هذا هو الحق والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.